من يملك الشارع..؟!

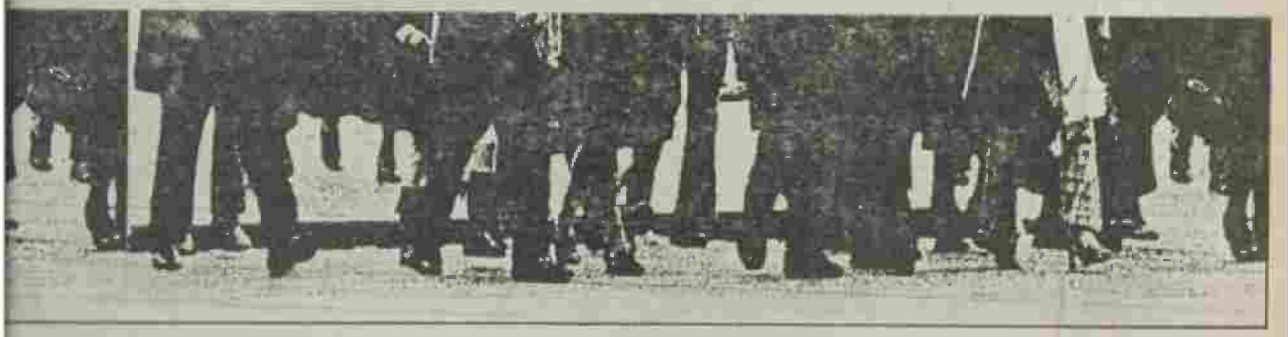

د. حسين مؤنس

هذه القاهرة ينبغي أن تكون «سيتي» أو مركز أعمال. إن نجاح الانفتاح كله ومصير النهضة الواسعة التي نقوم بها اليوم مرهون بسلامة القاهرة، لأنها القلب ومركز الشرايين. وهي مع الأسف مصابة بتصلب شرايين حاد. ونحن المسئولون عنه. وبدلا من أن نجعلها مدينة أعمال نجعلها مرتزقا لبياع البطاطا وصاحب كشك السجائر وصاحب مرجيحة العيال.

كل شبر من الأرض هنا له ثمن، حتى الهواء فوق الشيء أو بين الشيء وبشاري. وهناك ناس كثيرون يشترون الهواء من صاحب البيت ويبنون فيه. ويحتجون هذا ملكا وهناك ناس يشترون أراضي الصحراء على مسافات من المدن ويسمونها قطعا ويعرضونها للبيع أو يبقونها حتى يقترب منها العمران. وربما بعد خمسين سنة. ليقوم أولادهم ببيعها قطعا ويكسبون الألوف بعد عمر طويل..

وأسعار الأراضي داخل المدن تلهب شيئا فشيئا من أسعار الذهب. وأي إنسان يشتري شبرا من حشب له جدران أربعة ويسميه محلا. يستطيع أن يأخذ فيه بضعة آلاف. على رجل. ليتركه للغير. وهناك صعاليك حقا وقوا سماريين على جدار بن وكالان. وعقدوا دولابا يبيعون فيه السجائر أو أربطة الأحذية ويسمون هذا الدولاب متجرا ويطالبون تجات الجنيهات ليتنازلوا عن السماريين والدولاب «تاجر». تحجر. إلا الشارع أو الطريق العام إن كان أحد فيهما لأصاحب له. ومن هنا فلا ثمن له. في الشارع أو الحارة أو الزقاق يستطيع أي إنسان أن يفعل ما يريد كيفما يريد. ولا أحد يستطيع الاعتراض. لأن العرف الجاري أن الشارع لا صاحب له. وأي حضري أو فلاحي أو بدائي اكتوى وكانا تعيين في الشهر أيام وهان يضع يده على الرصيف أمامه ويحد أمامه وصاديله عليه ويحرم على الناس المرور عليه. لأنه أصبح ملكه بوضع اليد. ووضع اليد له عندنا - لا تدري كيف - وضع القانون. وهناك ألوف من العاملين في إصلاح السيارات يستأجرون دكانا مرة في مرة. ثم يحتلون الشارع كله ويرصون السيارات من الرصيف إلى الرصيف. ويوقد نقطة حظا لهم. بل إن من حقهم أن يطرقوا ويسمكروا ويقطعوا الحق الأحمر من لوحه دون أن يكون لأي مارة في أيديهم الحق في رفضهم شيئا من الضوضاء ليعمل أو يستريح. لأنهم هم وحدهم أصحاب الحق في راحة الناس أو عدم راحتهم.

وليس في «مدينتنا» وعاصمة القاهرة. قطعة رصيف أو ناصية شارع أو حارة إلا احتلها أو احتله إنسان يبيع خضارا أو فاكهة أو أي شيء. وهؤلاء الباعة يحتكرون ما يتاجرون في مساحة الشارع. الرصيف وقبر الرصيف. ويرغمون الناس على أن يمشوا إلى أرض الشارع بعيدا عن حظيرة احتكارهم وتجارتهم. وعلى السيارات جميعا أن تحترم «حق» هذا الإنسان على ما وضع عليه أقدامه من أرض. ويدور حول الأقفاص. وحتى أن تمس قدما بائعا مرة لا يحسب إلا في النهايات. لأن هذا الرجل أصبح «بالحيازة» صاحب حق على ما يشاء من الطريق العام. وله الحق في أن يجذب الناس جميعا لكي يبيع ما يشاء من البطاطا والخوخ والخيار. ومن حق هذا الرجل أيضا أن يأتي بامرأته وأولاده ليحملوا مساحات أخرى من الرصيف. وفي المرأة يأتون بأثاث واحتياجات هناء لونه لون الثياب لتطبخ لزوجها الثعبان. والأولاد يلعبون على الرصيف. وينامون. والزوج «الثعبان الثقيل» يتحول مع الزمن إلى تاجر من الأعيان. ويأتي بالكراسي ليدعى التاريخ مع الأحوال. ويضيق بطلب القهوة والشاي و«الواقعة» من القهوجي شعبان بن ريحان. وليس لأحد في الدنيا حق في المساس به أو بأسرته الكريمة. لأنه - فيما جمع من مال كثير - يقول إنه رجل غلبان وتعبان ولعبان

أحيانا يتحول هذا الاحتلال إلى حق مكتسب هو أقوى من حق الملكية القانونية . لأن الملكية لها حدود ثابتة في أوراق . أما وضع اليد فلا أوراق له . ومن ثم لا يعرف الحدود .

فجرية اليد تظل مكانها على ناصية الشارع بالنهار والليل . وقطعة الرصيف من الجرية وركن الشارع تحولت إلى مسكن شرعي . فيها وأمور أخرى داخلة وخارجة المفروض ألا يكون الشارع . وهذا يدوم وقد أو أكثر وقد أجيالا تتعاقبهم وتعاقبهم عصور .

وفي أحيان كثيرة ماذي إنسان آخر ويبني لنفسه متجرا ومسكنا آخر من هذا الطراز . ويعقب ذلك بناك وبناء حتى يلاقي الشارع كله .

وهؤلاء ، الملاك الذين يحتلون الشوارع ويحيلونها إلى مرافق ويحرمون أبناءها تستطيع أن تقول إنها طائفة . ولكنهم لا يدفعون مليما ضرائب لأنهم فيما يزعمون ، ملاك ، ومساكين ، ولو كانت الضرائب توجد حقا على أمثال الزبال لدفع أولئك الناس أضعاف ما يدفع نحن ، الملاك ، الحقيقيين . ومعي وافة ملتزمون . فنحن على قلة ما نكتسب محسوبون في سجلات الضرائب تحوالي ، باحسرة ! .

ومن غريب الأمر أن أولئك الملاك لأرصفة البلد وشوارعها يتكاثرون بسرعة هائلة كأنهم أرانب . ومهما زادت أرباحهم فإن مطامعهم وشكاهم الاجتماعي لا يحسن قط . فلا هم يتركون أرض الشارع ويسكنون في مكان محترم . ولا هم يقنعون قنوعا مقبولا أبدا . يكنسون أرصفة ما يكسب ويتفلون كل ما يكتسبون فيها بقشر الدخان والشاي والقهوة والبلاغ ، وما هو أسوأ من الدخان والبلاغ ، ويصر أن يرجم أحدهم أمراته أو أولاده فيكسوهم أو يحسن غذاءهم . لأن هذا المظهر الفقير الطفيلي هو رأس ماله الذي يتاجر فيه .

□ □ □

ولو اتسع مقام هذا المقال لأتيت بالمقال بعد المقال مما يثبت كيف ملك أولئك الناس أرض الشارع . ويعتبرونه ملكا خاصا يتصرفون فيه . بل يبيعونه ويؤجرونه . ففي هذا البلد الذي يدفع الناس فيه ألوف الجنيهات لكي يؤجروا دكانا مساحته مترفي متر . تجد امرأة في حي السيدة زينب وضعت بابها على نصف شارع الرصيف ونصف الطريق . وأحاطت ما ملكت بساج وأطلقت فيه الدجاج .

ففي ناحية دواجن لها ثمن وحال . وفي حديقة ، شطوط ، للأكل يجرسون دجاج ، للطعة ، ويبيعون للناس . و ، الطعمة ، هناك على ناصية الشارع وقد أعدت لها محلا تركب منه عيادة ودجاجاتها . ولا يزال تحرج حافظة نقودها الضخمة وتدخلها ، وهي تدخن الزرجيلة ، وتتسامر مع أمثالها من المطعمين . وهذه الأسماك التي جمعت وربطت حتى أصبحت كأنها بيت من بيوت الشارع . أصبحت أقوى وأغنى امرأة هناك . فإن مالها كثير . وقد تزوجت وأنجبت ذمة من الجمال . وأحالت الشارع إلى حيلة . وهي لا تدفع مليما ، ضريبة ، أو ، نظافة ، فضلا عن ، الدفاع ، و ، الجهاد ، وهو ذلك مما يؤديه عامة الساكن حقا ثم يعملون ويكسبون ويتفلون في الكنس والمآكل وتربية الأولاد ، وتخدمون هذا البلد ويعطونه مظهرا ورونقا .

وكل مليمان صغير من ميادين شارع الجيش احتل رجل وأولاده الشارع كله بعربات وأقفاص عليها حضر وفاكهة وبوتوفرات وقصدير وأمشاط وورائر وكل شيء . والرجل وأولاده يبيعون ويشترون أضعاف ما يباع ويشترى في حجر كبير . وقد أحاطوا معظم البلدان بحصر بالية وأريكوا المرور إلا لمن يريد اجتيازها إنسان أو سيارة . وحلف هذا السياج يعيش بعض أولاد الرجل وقد تزوجوا وفرشوا الترتاب وأتوا بمواتير الخلاء وأدخلوا ، وأدخلوا الكهرباء في مسكنهم هذا من عداد متحد في البلدان . وهم لا يدفعون شيئا في الكهرباء لأنهم يسرقون مال الله ولا يبالون .

وربح من جراء هذا الرجل وأولاده أنه حج إلى بيت الله في عامين . وتصور أنه تطهر عن نفسه ذنوبه . ثم عاد حاجا محميا ليواصل سرقة مال الناس ومال الله . والناس جميعا يعلمون من أمره ما فعلت . ولكن أحدا لا يتكلم . لأنه لم يعتد على أحد . وكل ما فعله هو وأولاده أنهم سرقوا أرض الشارع . والشارع لا صاحب له .

وهناك من هذا الطراز مئات . وربما آلوف .

□ □ □

بل المسئولون أنفسهم يساهمون في العدوان على الشارع العمري . فهم يبيحون حق استعمال الرصيف لفئات من الناس . ويتقاضون إيجاراً عن أكشاك تقام لبيع فيها السجائر والحلوى والمرطبات . وهم يحسبون أنهم يخلقون للدولة بذلك إيرادا ويضحون لتوجيه هذه الأكشاك أبوابا للرزق .

وكلا الأمرين خطأ . فإن الإيراد الذي يعود على الدولة من وراء هذه الأكشاك ضئيل جدا . ثم إنها تضر الشارع ضررا شديدا . ففي تحرم الناس حق المرور على الأرصفة وتعرضهم للخطر . وتشوه الشارع . وتنفق الدولة في تنظيف ما تخلفه هذه الأكشاك من قاذورات أضعاف ما تجبيه من وراثها من الربح . ثم إن الذي يكتري هذا الكشك لا يقتصر عليه فقط . بل يأخذ ساحات أخرى أكبر منه على تيه ويساره . أما تصورنا أن الذين يؤجرون هذه الأكشاك يحصلون بذلك على مورد رزقهم في أشد الحاجة إليه فغير صحيح . لأن الذين يؤجرون هذه الأكشاك جميعا ناس مقتدرون وهم يتاجرون فيها وبها . وبعضهم يأخذ في الكشك الصغير عشرين أو ثلاثين ألف جنيه حلوان . ثم إنهم يستخدمون هذه الأكشاك لتجارات واسعة بعضها مخالف للقانون .

ثم إن الشارع ملك للناس جميعا وليس ملك المسئولين . وأي كشك يقام على الرصيف فيه عدوان على الناس وتشويه للشوارع البلد وتضييق لها . حتى أكشاك بيع الخبز أو الخضر أو السمك التي يقام على الأرصفة تعتبر عدوانا على حقوق المارة . لأنها ترغمهم وترغم أولادهم الصغار على النزول إلى عرض الشارع والتعرض للخطر . وعبر لنا ألف مرة أن نتعب في الحصول على الخبز من البقالين من أن نتعرض نحن وأولادنا للخطر

□ □ □

وبعض هذا أنا جميعا – مسئولين وغير مسئولين – بحاجة إلى شوارع المدن وخاصة القاهرة . وكل ذلك بالشيء من أننا لا نعرف أهمية الشارع ووظيفته .

وهذه المقالات لن لا تكتبها لبيان عيوب . إنما لتوضيح حقائق وفتح أذهان وتنبيه على مجهول . وذلك فيما يحسب وظيفة الكاتب وصاحب الرأي والقلم . ومن واجبنا أن نقول إن السلطة التي تتصرف في الشارع فتؤجر بعضه أو تبيعه أكشاكا على بعضه إنما تضر أكثر مما تنفع . ثم إنها تتصرف في مرفق عام ليس لها حق التصرف فيه . وإنه لمن العجب أن نعلم أولادنا في المدارس ونقول لهم : لا تمشوا إلا على الرصيف . فإذا خرجوا إلى الطريق لم يجدوا الرصيف . فلا تكون قد منعتهم في هذه الحالة من السير بين السيارات . وليست هناك سلطة شرعية لها الحق في أن ترغم الصغار على التعرض لأخطار السيارات

ثم إن الشارع فيما يرى المتخصصون في شئون المدن وعلى رأسهم لويس ممفورد : هو حياة المدينة . بل هو المدينة نفسها .

ويحسب البعض أن المدينة مجموعات من المساكن تربط بينها الطرق . وهذا خطأ . لأن الحقيقة أن المدينة طرق أولا ثم تكون المباني بعد ذلك

هذا هو المفهوم الحديث الصحيح للمدينة . فإنا نستطيع أن نتصور مدينة من الطرق المهيأة بكل مرافق المدن ولا نقيم على جوانبها إلا مساكن قليلة . ولا نستطيع أن نتصور مدينة هي كتلة من المساكن ليس بينها إلا أزقة وحوار ضيقة

المدينة المساكن المتراكمة والأزقة الضيقة هي مدينة الماضي ومدينة الماضي – إلى نهاية العصور الوسطى – كانت ضخمة ومتسعا يدور حوله سور . أما مدينة الحاضر فمركز أهلها ، والحركة وسهولتها هي الشرط الأساسي لقيام الأعمال . وهنا نفهم كيف إن الشوارع في المدينة أهم من المساكن . والذين يخططون المدن اليوم يبدأون أولا برسم الشوارع والميادين لأنهم يريدون مدينة حركة واسعة الشرايين . متوسط عرض الشارع في المدن الجديدة ١٥٠ مترا . والعالمية يجعلون العرض ٢٠٠ متر حتى لا تصاب المدينة بتصلب الشرايين أبدا . وهم يشقون الرافق كلها في محارات ضخمة من الخرسانة والصلب . محارات ارتفاعها وعرضها أربعة أمتار . وهناك توضع كل أنابيب المياه والكهرباء والغاز . والمجاري والتليفون يمرون فيها ويسيرون كأنهم في شوارع لكي يستطيعوا الإصلاح والتجديد . إنهم أيضا يشقون محارات للمرور وأنفاقه . ثم يعطون ذلك كله ويشقون الشارع إنشاء صلبا جدا . ثم بعد ذلك تكون المساكن والمباني .

من يملك الشارع.. ؟!

وليس هذا التفكير جديدا ، إنما هو قديم يرجع إلى النصف الثاني من القرن الماضي . وأول من ابتكره مهندسان فرنسيان هما الأخوان اوسمان أو هوسمان . وباسمها يسمى الآن شارع من أكبر شوارع باريس هو بوليفار أوسمان .

كانت باريس إذ ذاك مدينة صغيرة تنحصر في الحي اللاتيني وشارع الجمهورية (لاريبوبليك) والشان دي مارس والايل دي فرانس وامتدادها حتى حدائق اللوفر ، وقصور التويلري

وكان لابد من إنشاء باريس جديدة ، مدينة أعمال ، لأن عصر الصناعة والتجارة الكبرى كان قد بدأ في أوروبا كلها

وخطط الأخوان أوسمان المدينة الجديدة على نطاق واسع يحتمل تقدم المدينة وتطور الأعمال في فرنسا كلها لمدة قرن كامل من الزمان .

وكان تخطيط شبكة الأنوال لمبدأ الشارع والطرق (الأفنيوهات) العشرة عشر التي تتفرع منه ، ومنها الشانزليزيه وحدائق الأليزيه وعرضه ٢٠٠ متر وميدان الكونكورد ومساحته ستة أفدنة .

يومها قيل إن الأخوين أوسمان وأعوانهما كانوا مجنونين ، ثم تبين أنهما أعظم العقلاء ، فإن الشوارع الواسعة والمبادين الشاسعة والحدائق والأشجار والمرافق المخططة على نطاق واسع هي التي تصنع المدن الحديثة ، مدن الحركة والأعمال والتجارة والمال والوكالات ومكاتب الشركات والبنوك والفنادق . في أواخر القرن الماضي وضعت رسومات خطوط مترو باريس ، وضعوها وأنشأوا الأنفاق قبل أن تبنى المباني ، بعد أن تم كل شيء وضعوا للشوارع مخارج محددة للسيارات ، ولا تكون مخالفة أية قاعدة من قواعد البناء ، لابد من ذلك لكي يكون للمدينة طابع واحد .

وكانت فلسفة الأخوين أوسمان في إنشاء المدن هي القاعدة التي اتبعت في إنشاء برلين وروما وطوكيو وكل مدن الأعمال الحديثة .

هذه كلها مدن أعمال وحركة ، وهم لا يضحون قط بسهولة المرور في شوارعها لكي يتيحوا الفرصة للناس بطلاقة لكي يستمتعوا بمتعة على ناصية الشارع ، نعم قد توجد هناك عربات ولكن مواقعها مقدرة بحساب ، ويشترط فيها عدم الدوام ، ثم إنها لابد أن تكون في غاية النظافة .

ولولا أن باريس مدينة عاصمة للأعمال ومراكز التجارة والصناعة لا استطاعت فرنسا أن تكون مركزا صناعيا تجاريا عظيما ورئيسيا في هذه الدنيا ، لأن الأعمال تحتاج إلى مراكز ومكاتب ومواصلات سهلة فوق الأرض وتحت الأرض وتليفون وتلغراف وتليكس .

ولا مكان فيها قط لا مرأة ترى دراجي في الشارع ، ولا لإنسان يدفع عشرين جنيها ليشتري رصيف شارع

هل تعلم مثلا أن في القاهرة ناسا صناعتهم عمل مراجيح للأولاد ، وهم يؤجرون المرجيحة بعشرين في اليوم ، والذي يستأجرها يضعها في أي مكان ؟

إنه يحتل نصف الشارع ، وينبغي على كل سائر سيارة أن يعرض على ألا يمس قوائم المرجيحة ، والأطفال يصرخون والمرور يتعطل لأن رجلا بطاقية وجلباب يلوث الأرض دفع جنيهين إيجارا لمرجيحة ، ولابد أن يستخرج منها حصة جنيهات في اليوم يدفع منها الإيجار ويحتفظ بالباقي لا ليعفه على عياله ، بل ليعفه على الكيف والمزاج

هل هذا كلام يا ناس ؟ .

وهل هذا ذنب هذا الرجل ؟

لا والله ، ما هو بذنبه ، فهو رجل جاهل يريد أن يستخرج المال من أي طريق ، وليست لديه فكرة لا عن القاهرة ولا صالح الوطن ، ونحن لا نلومه ولا نثور عليه ، إنما نحن نتركه يتفاهم مع الشاويش . والشاويش يتركه يتعب المرجيحة و« تلبق وأنا شيلك » و« أهي ماشية » .

□ □ □

لا والله ما هي ماشية .

والقاهرة أعز على الله وعلينا وعلى الدنيا من أن نقتلها لكي يعيش بائع متجول ، ويعيشنا هذه الانتفاح الذي نسير فيه بخطى ثابتة . إلى حاجة إلى مدينة أعمال أو « سيتي » كما يقال ، والأعمال لا تتعفن قط في مدينة مصابة بضيق الشرايين ، ورجال الأعمال لا يستطيعون العمل في مدينة بلا شوارع ولا أرصفة ولا مواقف سيارات ولا تليفونات تعمل بانتظام .

رجل الأعمال يريد أن يفصل من غرفة قلقه بلندن ونيويورك وطوكيو ، ويريد أن ينتقل بحرية وسرعة وثقة من مكان لمكان ، وكيف يستطيع ذلك وهو يحتاج إلى نصف ساعة لكي يقطع المسافة من الفندق إلى شارع طلعت حرب ؟

وما الذي نفعله ؟ ..

الجواب في ثلاث كلمات : كما يفعل غيرنا .

المحافظة الكاملة على الشوارع وأرصفتها ، وخطة مرور سليمة توضع بإحكام ، ويشرف على تنفيذها ضباط مرور من مستوى رفيع . هل رأيت رجال المرور في لندن وباريس وطوكيو ونيويورك ... ؟ تريد هذا الطراز من الرجال .

وعادات القاهرة مدينة عالية فينبغي أن توضع مصائرها بأيدي رجال ذوي عقلية عالية .

إن القاهرة هي « السيتي » هي مركز الأعمال ، هي دماغ هذا البلد ، هي قلبه وشرايينه ، ولابد أن نلقيها أولا من تصلب الشرايين .

لابد أن تتخلص القاهرة من حمل العاطلين والمتسكعين والواقفين الباعة لكي تتحرك القاهرة بسرعة وخفة وتقوم بمسؤولياتها . أما فتح أبواب الرزق المطلوب ولكن لا على حساب القاهرة ، ولا على حساب مصر ومستقبل مصر .

والشارع لا ينبغي أن يكون قط ملكا للبائعين والمتسولين ، والذين يشرفون على الشارع لابد أن يكونوا سكان الشارع ، لأن رجال الدولة لا يستطيعون أن يعملوا كل شيء ، ولكل طاقة حدود ، ولا يكلف الله نفسا إلا وسعها .

ولكل هذا حديث طويل نقوله إذا وجدنا من يسمع ، أما إذا لم يكن هناك من يسمع فما فائدة الكلام ؟ .